إبداع البطولة.. وبطولة الإبداع

الشـاهد والشهيد.. كلمتان تخرجان من جزر لغوى واحد.. والأهم أن المعنى فى كل منهما «يتماهى» مع الأخرى.. فالشهيد «صيغة مبالغة» من الشاهد.. والشـهيد شهادته حضورية بحواس يقظة ومدركة.. أما الشاهد فشـهادته معرفية تؤكـد بالخبرة الفوارق بين الصـدق والكذب، وأحيانا تفسر. وبرغم ذلك فقد توارثنا منذ مئات السنين ذلك «المعنى الدارج» الذى يقصر صفة الشهيد على من قتل فى سبيل الله.. بينما القرآن الكريم يأتى فى مواضع كثيرة بلفظة الشـهيد كدلالة على من يدلى بشهادته أوكدلالة علـى فعل «الرؤية».. ومن هذه الآيات ما جاء فى (الآية ٢٨٢ من سـورة البقـرة) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ ﴾ وأيضـا مـا جاء فـى (الآية ٧٨ من سـورة الحـج) ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ وأيضـا ما جاء فى

(الآية ١١٧ من سورة المائدة) ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

والشهيد اسم من أسماء الله الحسنى.. وكما ذكرنا فإن شهيد صفة مبالغة من شاهد.. وربما ذهب المفسرون وعلماء اللغة إلى قصرها على من يقتل في سبيل الله.. انطلاقا من كون الشهيد بهذا المعنى يكون في حضرة الله فيرى ما لاعين رأت.. ويسمع مالا أذن سمعت.. لأنه في «بؤرة الاصطفاء» من الله تعالى..

وإذا كانت الآيات القرآنية قد جاءت بلفظة الشهيد دلالة على الرؤية أو الإدلاء بالشهادة.. فإن السنة النبوية المطهرة قد جاءت بها دلالة على معنى الموت في سبيل الله. ولكنها توسعت في المعنى.. والحديث الدال على ذلك له روآيات مختلفة.. نذكر منها رواية مسلم.. «روى مسلم في صحيحة عن أبي هريرة قال: قال ﷺ.. «ما تعدونه الشهيد فيكم.. قالوا: من قتل في سبيل الله فهو شهيد.. قال: إن شهداء أمتي إذن لقليل.. قالوا فمن هم يا رسول الله؟ قال من قتل في سبيل الله فهو شهيد.. ومن مات في سبيل الله فهو شهيد.. ومن مات في الطاعون فهو شهيد.. ومن مات في البطن فهو شهيد وعددت الروآيات المختلفة الغريق والمحروق والمبطون «من مات بمرض في البطن» والنفساء.. ووصل الأمر في رواية لأبي داوود عن أبي مالك الأشعري إلى قوله ﷺ «أو مات على فراشه بأي حتف شاءه الله فإنه شهيد له الجنة وفي روآيات أخرى من مات دون عرضه فهو شهيد.. ومن مات دون ماله فهو شهيد.. إلخ

ونخرج من هذا السرد بأن «الشهيد».. يصح أن يكون من يشاهد حوادث الحياة ويشهد عليها... ويصح أن يكون من استشهد في سبيل

الله فى أى مجال من المجالات التى توسع فيها رسول الله.. لتضم كل صاحب عمل جاد ونية صادقة.

وبعيدا عـن تلك «الحزلقة اللغوية» فإن صفحات هذا الكتاب تحوى «رؤى محبـة» و«آراء ناقدة» لبعض أولى العزم من البشـر.. الذين امتطوا صهوة الإبداع.. فى مجالات كثيرة.. ولكنهم أخلصوا الجهد والاجتهاد.. فكانوا ممن شـاهدوا وشـهدوا واستشـهدوا أيضا فبعض النماذج شهداء بالمعنى الدارج لأنهم قضوا نحبهم فى سـبيل الله.. فى مواجهة الاعداء ولنصـرة ورفعة الوطن.. وكل النماذج شـهداء لأنهم أفنـوا أعمارهم فى البحـث والتنقيب.. والإبداع.. فالعقيد إبراهيم عبد التواب شـهيد لأنه قضى نحبه وهو يحارب العدو ببسالة وإيمان.. واللواء محمد زكى عكاشة شـهيد برغم انه اسـلم الروح بـين يدى أطبائه فى حجـرة العمليات.. وكل من العقاد وباكثير والحجاوى والشـناوى وزيدان ومصطفى محمود وعكاشة شهداء لأنهم شـاهدوا وشهدوا وأبدعوا.. وبذلوا الغالى والنفيس فـى تجديد وتجويد إبداعاتهم.. فلن نغـالى إذا أكدنا على أن كلا منهم كان شـاهدا على العصر.. وأنهـم قدموا من خـلال إبداعاتهم المختلفة شهاداتهم على ذلك العصر..

فاسـتحق كل منهم أن يكون «شهيد» سـواء بالمعنى اللغوى كصيغة مبالغة من شـاهد.. أو بالمعنى الدينى كواحد ممن يسـتحقون رضى الله ورضوانه.. جزاء ما اجتهدوا وتعبوا وصابروا وصبروا لتقديم إبداعاتهم.. التـى تثير العقل.. وتسـمو بالوجدان.. إنهم مشـاعل النور.. فإذا كان «الشـهيد» الذى يجود بروحه فى مواجهة الأعداء.. قبس من نور الله..

ينتشر ويتغلغل فى خلايا الوطن.. ليصبح معنى نورانيا صوفيا.. نختذله فــى صــورة العلَم.. الذى نجــود بالأرواح ليظل مرفوعا وشــامخا.. فإن المبــدع هو الأخــر قبس من «إبداع الله».. ينتشــر ويتغلغــل فى العقول والنفــوس.. لتصبح أكثر عشــقا وعطاء للوطن.. ليظــل العلَمُ ذلك المعنى النورانى الصوفى مرفوعا وشامخا..

ومتى صدقت النوايا.. فالمحارب والمبدع تجسيد لإرادة الله.. ولكل آيــات الجلال والجمال فى الكــون.. لأنهما دوما صفــوة الصفوة بين من يتفكرون ويتدبرون ويعقلون ويجاهدون.. فكلاهما شــاهد وشهيد.. وقبس من نــور الله لمحاربة الظلم والظُلْمــة.. والأهم لمواجهة الظالمين الذين يسعون لإطفاء نور الله بظلمات الجهل والإرهاب.. ولكن هيهات هيهــات فأنوار الله تســعى دوما بين يدى الشــاهد والشــهيد لتمحق الظلمة.. وتسحق الظالمين.

محمد الشافعى

القاهرة – نوفمبر ٢٠١٤م